العماد أول مصطفى طلاس

إليك محبتي وتقديري أيها الغالي على القلب:
الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام
العظماء . . . خالدون

يقول الجنرال دوغلاس ماك آرثر: إن الجنود القدامى لا يموتون ولكنهم يختفون.. وفي الإطار ذاته.. يرى الفيلسوف برتراند رسل: أن الموت هو الذي يفصل بين العظماء.. والناس العاديين. وعندما علمت برحيل أستاذي الكبير تذكرت قول المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ فزعت به بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

والآن:

ما أصعب فراق الأحبة، وبخاصة إذا كانوا من أصحاب الفضل عليك وعلى جيلك، وما أقسى المصاب الأليم بفقدهم. ولكن العزاء الجميل في أن العظماء لا يرحلون إلا بأجسادهم، أما ما خلَّفوه وراءهم فهو باقٍ بما غرسوه في نفوس معاصريهم من قيم العلم والخير والنضال.

فالعلاّمة الدكتور شاكر الفحّام أحد أساتذة جيلنا في الأدب والسياسة، وقد تلمذت على يديه في باكورة أيامي وعرفت فيه المعلّم العصامي الذي يمثّل البعثي العربي الأصيل في التمسك بقيم العلم والخير والنضال، أخلاقًا وسلوكًا..

عرفته مكتملاً قد أعدّ نفسه الإعداد اللائق لحمل المهمة السامية، فأطلّ بعقله الوقاد على مشرق المعرفة راغبًا في الأخذ منها حتى الاكتناز، مستندًا إلى معطياته الطبيعية، مفيدًا مما يكتسبه، يحدوه إلى ذلك نهم شديد يشعر معه بالحاجة الملحاح إلى اغتنام مختلف السوانح التي تساعده على أن يتبسط ويتعمق، وكثيرًا ما رأيته في حواري معه، يشغف بالمجهول فيتحرش به حتى يدرك كنهه وتطيب له معاشرة الأعماق، فيشجها ويذهب معها إلى ما يبلغه أغراض المعرفة الرصينة، وبقدر ما يزيد إقباله على الخوض في شتى الموضوعات الأدبية واللغوية والسياسية، يزداد علمه شحذًا، ووعيه استنارة، حتى يتثبت في معلوماته وتترسخ فيه الثقة بالأشياء التي يكبّ عليها، دون أن يأخذه في نهجه غرور، ودون أن يصيبه العناء، حسبه من وجوده أنه مدعو إلى التفكير والعمل، فيفكر ويعمل..

هكذا عرفته وتوثقت علاقتي به يومًا بعد يوم، حتى فجعنا جميعًا بفقده.. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

من البداية ترك في نفسي قدرًا كبيرًا من المحبة والتقدير، وأنا مدين له بالكثير من التشجيع في متابعة الأدب، كما أنا مدين له بالالتزام الواعي بقضايا الوطن والأمة. وقد ساعدتني الظروف على أن أردَّ له بعض الجميل.. وكان ذلك بعد ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣.. فقد هاتفني الرفيق حمد عبيد قائلاً: إن رفاقك في المجلس الوطني لقيادة الثورة قد خصّوك بحقيبة وزارية وأنت مطلق الصلاحية في اختيار من تشاء لتسلم هذا المنصب.. وكان جوابي الفوري: أنني أرشح الدكتور شاكر الفحّام لهذه المهمة وأرى أن الوزارة التي تناسبه: هي وزارة التربية والتعليم.. وتمَّ ذلك.. أما عن معرفته الشمولية الموسوعية في اللغة والأدب والنقد، فلن أخوض في ذلك لأن كلّ الناس تعرف

جيدًا هذا الموضوع.. ولكنني أذكِّر أبناء هذا الجيل بمواقفه النبيلة في الالتزام، حين كان النضال مكلفًا لأصحابه ويُعد تضحية نادرة ممن يقدم عليه، فهو من جيل الروّاد الذين عرفنا قيمه وتعلمنا منهم الالتزام بالمبادئ السامية في أحلك الظروف، وكلنا يذكر في تاريخ النضال موقف حزب البعث العربي الاشتراكي في عهد العقيد أديب الشيشكلي، حين فرض على الموظفين الالتزام بحركة التحرير التي تزعمها، وأراد من الجميع أن يمتثلوا لما يريد، ويومَها رفض بعض الرفاق هذا الالتزام بقرار سياسي من الحزب. وكان الدكتور شاكر الفحّام واحدًا منهم، وهذا أمر طبيعي ومقبول من كل رفيق حزبي، ولكنّ التميز الذي ظهر عند الدكتور شاكر الفحّام ترك بصمته الواضحة في نفوس الجميع، لأنه حين طلب منه أن يحدّد ما يحتاج إليه من تعويض مادي يعينه على الحياة بدلاً من راتبه الذي انقطع بسبب رفضه الانصياع، وظهر العجب العجاب!.. فقد حدَّد تعويضه بخمس عشرة ليرة سورية لا غير، وعندما نوقش بأنها لا تكفي، قال تكفي لمعايشتي الناس، ولا أحتاج لأكثر من ثمن فنجان قهوة ثمنه ربع ليرة سورية في قهوة الروضة بحمص، وربع ليرة زيادة كي أستضيف من يجالسني ويستمع إليّ، أما طعامي وحياتي، فأنا وأمي نتشارك في المؤونة. وهكذا كان الموقف متلازمًا مع السلوك النضالي الذي لا ربح فيه. أليس هذا تفردًا وتميّزًا يذكر من الفضائل التي يفخر بها كل رفيق حزبي، عرف كيف يكون الالتزام الواعي بالمبادئ والمثل، فله التحية الوفية بعد فقده الأليم، مني ومن سائر الرفاق الذين يفخرون به وبسلوكه وعفته وعلمه. هذا على صعيد السياسة والعمل الحزبي، وتاريخه معروف منذ التأسيس الذي كان له شرف المشاركة فيه.

أما على الصعيد الشخصي فكان المرجع الأدبي لي ولأمثالي من طلابه الذين يلجؤون إليه كي يُغنوا ثقافتهم، ويُصححوا مسارهم، وأذكر له تشجيعه لي في باكورة أيامي حين نظمت بيتين من الشعر قلت فيهما ما قلت في وصف فتاة جميلة حزنت على فراق والدها[١]:

قفـــي يـــا ليلـــى لا تبكـــي فمـــا أشـــجاك أشـــجاني

جرحـــت القلـــب لـــو تـــدري بـــسهمٍ مـــا لـــه ثـــانِ

وكالفراشة حملت البيتين على جناحين، وطرت بالفرح والاستبشار إلى مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي في جورة الشياح حيث التقيت أستاذي شاكر الفحّام، فبادرته قائلاً: وأخيرًا دخلنا الهيكل وأكلنا من الذبيحة؟!

وقال: ما الخبر؟

ودفعت إليه البيتين اليتيمين وأنا أزهو! وقلت خذ وانظر.. هذا من فضل ربي، وتأملهما وهو يقول: جميل جدًا، ولكن أين البقية؟ ولفوري قلت له، البقية تأتي[٢].

وظلَّ القدوة مرجعي في الأدب والشعر والسياسة حتى عرفت الطريق الصحيح.. وها أنا أقف بالتقدير والاحترام أمام ذكرياتي الحميمة معه لأقول، رحمك الله يا أستاذي، ونفعنا بعلمك الذي تركته لنا لنعود إليه حين نريد أن نتعمق الأشياء، هكذا يكون العظماء إنهم لا يرحلون بل تبقى ذكراهم حيَّة في نفوس المحبين المخلصين... ورحم الله الجواهري حين قال:

ومزيّـةُ «العظمـاءِ» أن حيـاتَهم خِـصْبٌ وأن ممـاتَهم إثمـارُ

(١) هي ليلى بنت مظهر رسلان من حمص العذبة.

(٢) لا بدَّ من الاعتراف أن ملكة الشعر لم تأتني إلا عندما بلغت الأربعين من العمر.